أوروك الأدبي تحتفي بالأديب العراقي ناجي التكريتي

www.palms-news.com

نخيل نيوز | خاص | بغداد

إحتفى العدد (108) من ملحق جريدة"أوروك الأدبي" الجريدة المركزية لوزارة الثقافة والسياحة والآثار العراقية ، بالأديب العراقي ناجي التكريتي، الذي قال عنه فائز طه عمر في تقديمه النقدي ، إنّ ناجي التكريتي حوّل العمل الروائي إلى عمل فكري وفني ووظّف جميع الرؤى الفكرية والفلسفية والنفسية والإنسانية لخدمة العمل الروائي حتى تصبح له قيمة ومعنى)، وقد خصّ الملحق بقصته "مطعم شنغهاي"

واحتوى الملحق عدداً من الدراساتِ والمقالاتِ والنصوصِ والترجماتِ بأقلام نخبةٍ مميّزةٍ من الكُتّاب والمفكّرين والشعراء والمترجمين، وفيهم رموزٌ عراقيةٌ كبيرةٌ، فكتب القاص محمد خضير عن "صناعة كاسدة" وعماد جاسم عن "ثقافة التجريح ولذة الاختلاف" وكانت قصيدة عبد الرزاق الربيعي بعنوان "ورقة مدسوسة في كتاب حرب البسوس" بينما كتبت فاتن الجابري قصة بعنوان "حبات الكهرمان" ليوثّق مهدي قاسم عن "كاميكازي عشيرة آل واق واق " كما أجرى صفاء الصالحي حواراً إفتراضياً مع الكاتب والروائي سعد محمد رحيم يرى فيه أنَّ الرواية تساوي الحياة، ومن لم يترك روايةً قبل أن يموت كأنَّه لم يعش، وكتب هيثم بهنام بردى عن سندباد السرد العراقي محمود البياتي، وفي الترجمة نقرأ قصائد مترجمة من إيران وتشيلي، وغيرها من المقالات والنصوص.

وتزيَّن العدد الجديد، بتخطيطات الفنان التشكيلي المصري إبراهيم عبد المغني فيما كان غاليري الأخيرة مُخصصاً للفنان التشكيلي منعم الحيالي.

نخيل نيوز

ان ناجي التكريتي حول العمل الروائي إلى عمل فكري وفني، ووظف جميع الرؤى الفكرية والفلسفية والنفسية والإنسانية لخدمة العمل الروائي حتى تصبح له قيمة ومعنى. كما ان التكريتي طور نفسه مع العمل الروائي من الكلاسيكية إلى التجريبية إلى التعبيرية، وبالتالي لم يقف مع الرواية عند حد أو زمن أو فكرة معينة بل كان يتجدد دائما وتتجدد معه رواياته.

أ.د. فائز طه عمر

لقد أحببت الروائي ناجي التكريتي دون أن أراه أو أعرفه فقد وجدت فيه الكاتب الذي يعكس صورة كل شاب عراقي عاشق حرمته الظروف من حبيبته وكنت أقول في نفسي: هل أن في العراق كُتاب وروائيون بهذا الحجم وهذه الروعة يعادلون فيكتور هيغو في (بؤساءه) أو شارل دكينز في (قصة مدينتين) أو همنغواي (الشيخ والبحر) أو عبدالحليم عبدالله في (من أجل ولدي) وغيرهم ونحن نعتقد بأنهم آخر معاقل القصة والرواية في هذا العالم.

د. عبد الهادي البابي

مطعم شنغهاي

للكاتب والأديب الكبير د. ناجي التكريتي

ما أن غادر الأستاذ الزائر بناية مكتبة الجامعة، حتى شعر أن ظلام المساء بدأ ينشر جلبابه الواسع فوق المدينة. لقد كانت جحافل السحب الداكنة تسبح في الفضاء منذ عدة أيام وبالرغم من أنها قد أعدت قليلاً من الأمطار لتغسل شوارع المدينة وتسقط ما بقي من أوراق صفر معلقة في أطراف غصون الأشجار، إلا أنها لم تهبط مرة واحدة فتفرغ حمولتها الثقيلة ولا هي ابتعدت عن سماء المدينة، لتسمح لأشعة الشمس أن تقبل مشرقة صفراء باسمة، وليرى الناس صفاء وجه السماء.

تحسس الرجل أطراف القبعة في رأسه، وفي الوقت ذاته، بدأ يثبت أزرار معطفه جيداً، ان نسائم الهواء كانت تقبل عليه باردة قاسية من كل جانب أنه في أواسط الخريف، لكنه ما أن أعاد التفكير ثانية حتى أدرك أنه في أوائل الشهر الأخير من فصل الخريف. مع هذا فهو يرتدي بدلة الشتاء السميكة، إضافة إلى قبعة والمعطف الثقيل.

تذكر وهو ما يزال يسير في الممر الذي يربط بناية المكتبة بباب الجامعة الخارجي. أنه لم يمضي عليه أكثر من أسبوع منذ أن وطئت قدماه أرض هذه المدينة الجميلة، فقد مر من أول يوم وصوله، أن الشتاء يتقدم هنا عن موعده بشهر أو شهرين، أو ربما أكثر من يدري ربما لا وجود لفصل الخريف في هذه البلاد من حساب. التفت حواليه فرأى الطلبة يهرعون إلى بيوتهم وإلى مسكنهم الجامعية مخلفين قاعات الدرس وراءهم وقد كدّروا في الملابس الثقيلة والمعاطف الواقية من المطر المبطنة من الداخل بالفراء، الذي يحفظ حرارة الجسم وسط هذا البرد القاسي، الذي بدأ يزحف من كل مكان مع حلول الظلام. وجلب انتباهه أضواء المصابيح التي كانت تتألق في كل مكان. المساء إذن يبكر في هذه البلاد والشمس غربت خلف الأفق منذ عدة ساعات أيام الشتاء إذن تتداخل هنا مع أيام الخريف. وابتسم مع نفسه، وهو يخلف الباب الرئيس للجامعة وراءه، فيتأمل مفكراً: من يدري ربما يسرق الشتاء أيام الخريف في هذه البلاد ونحن لا ندري، أو ربما تزحف أيادي الشتاء إلى الأمام لتستحوذ على أكبر عدد ممكن من أيام الخريف. بالحقيقة أيام الشتاء ولكنها في الحساب، تعد من فصل الخريف. نظر إلى الأمام إذ ازدهر الشارع أمامه بأنوار ساطعة، فحدثته نفسه قائلة: وهل يخطر على بالك أن الشتاء الذي يمد يديه إلى الأيام مستجدا جهد استطاعته على أيام الخريف ليضمها بين أحضانه ويعتصمها من تواً بعده. أقول .. من أدراك أن مثل هذا الشتاء سيمد رجليه إلى الأمام أيضاً، ليمدها هنا استطاع إلى ذلك سبيلاً، فيمتلك جزء كبيراً أو صغيراً من أيام الربيع؟

سار صامتاً، كان الشارع يزدحم بالسيارات المسرعة والتي حسب أنها عائدة إلى منازلها مع زوال النهار. أما بعض الناس فكانوا يسيرون هم الآخرون على جانبي الشارع مسرعين بخفة وانتظام وقد أدرك حقيقة توصل إليها، وهو ينظر إلى تمثال كوبرنيكوس، الذي ينتصب على قاعدة عالية أمام الأكاديمية العلمية في المدينة، بأن شتاء هذا البلد طويل، وربما يمتد في الحساب إلى خمسة أو ستة شهور.

وما ان مر بجوار التمثال، الذي يرفع الشمس بيد والأرض بيد، حتى هز رأسه محيياً ومتمتماً: إيه كوبرنيك لقد سبقك هرقليطس بأكثر من عشرين قرناً من الزمان، لكنه لم يفصح، ولم يحدد مقولته الكبرى، ووصلت أنت عنده لك طريقك الآخرون.. من يدري فربما ادركت جزء من الحقيقة فقط هو قد غاص في بحر الحقيقة الكبرى، ومازال الناس في ثراه يتبعون من يدري انك كغيرك طفل من الأطفال فرحوا بلعبة صغيرة يلهون بها، سيبقى هو ذلك العملاق، وشتان بين الصوت والصدى لأولئك الذين يعلمون وشتان بين صداه السمعة الصغيرة في أسواقي وبين الباحث عن الحوت في أعماق المحيط.

وواصل الحالم سيره في الشوارع، دون ان يستقل سيارة اجرة توصله إلى مطعم، يتناول فيه وجبة العشاء، وذلك لان مركز المدينة، حيث تنتشر فيه المطاعم والمقاهي والفنادق، لا يبعد عن بناية الجامعة بأكثر من خمس دقائق مشياً على الأقدام. وجد المسافر بُغيته، وانتشاء بعد جلوس دام عدة ساعات امام الكتاب، فقد انعشه هواء المساء هذا، بالرغم من برودته، فانه يبعث فيه القوة والنشاط لذ للغريب، الذي لم يمضي عليه في المدينة أكثر من اسبوع واحد من الأيام، ان يمتع النفس بـــالنظر إلى واجهات المخازن المنورة بالمصابيح المتلألئة من كل لون، كما انه كان ينظر مساهماً متأملاً الأشجار على جانبي الشوارع، وقد تعرت غصونها من الأوراق مبكرة، مع انه يعهد في بلاده تأخر تساقط الأوراق الذهبية عن قلادها حتى اواسط الشتاء.

وبين الأضواء المنيرة في شارع العاصمة الرئيسي، ميز الغريب لافته تشتعل النوار بالنون الأخضر بدأ كلما اقترب منها، ميز انها تعلن عن مطعم، حتى تبين له الاسم واضحاً: مطعم شنغهاي.

حن إلى نكهة الشرق في الحال، بالرغم من انه قريب عهد بـــه، كما تذكر الأكلات ذات اللون الخاص في المطاعم الصينية في انجلترا، دخل البناية في الحال ووجد ان الدرج يصعد به إلى الطابقة الأولى من العمارة.

لم يكن المطعم واسعاً ولاسيما انه يقع في مكان مهم من مركز المدينة، راحة البهارات الشرقية غزت انفه، وهو يتفحص الموائد التي وجدها مزدحمة بالجالسين. اقترب منه عامل يشير إلى مائدة يجلس امامها رجل مسن، إذ بقيت هناك ثلاثة كراسي أخرى فارغة. ابتسم الزبون الجديد مع نفسه، لأنه تصور ان عامل المطعم من الصينيين، كما تعود ان يراهم في مطاعم انجلترا، لكنه ميزهم من اول وهلة، انهم مواطنون يتعاطون تقديم الطعام الصيني.

ابتسم الرجل العجوز مرحباً بالضيف، الذي جلس امامه وجهاً لوجه، وهو يوصي النادل بطبق صيني مميز كما انه وجهه قد تهلل عندما سمع الجالس قبالته يطلب كلمة من الفودكا، لم يلبث القادم ان اخرج علبة سجائره قدم منها واحدة للرجل الذي اخذها شاكراً، وقبل ان ينفث دخان السيجارة سأل الغريب ملاطفاً:

ـ هل تحب الفودكا الوطنية؟

وهز الآخر رأسه بالإيجاب، واضاف الرجل الشيخ الذي كان يلوك طعامه بصعوبة بالغة:

ـ مرحى لك.. ذوقك عال.. انها احسن فودكا في العالم.

ابتسم الآخر وهو يسحب نفساً من دخان سيجارته، ويتفحص المكان الذي وجد نفسه يطل من مكان على الشارع، الذي بدا امامه منوراً والسيارات مسرعة، لاحظ الزائر ان المارة يسعون يلوذون على الجوانب، إذ شعر ان الصقيع بدأ يغزو المدينة، ولذا فقد هرع الناس إلى بيوتهم مبكرين. شاهد الجالس ان الفوانيس الصينية تتدلى من السقف، كما انه لاحظ ان جدران المطعم طليت بلون اخضر فاتح مسر للعيون، وزينت النوافذ التي تطل على الشارع بستائر قطيفية حمر اللون. اجال بصره في الجالسين، فلم يعرف احداً ولاسيما ان ضوء الفوانيس المعلقة كان خافتاً، كما ان الرواد كانوا غرباء عليه. شعر بنقرات كأس خفيفة على المنضدة فرأى الرجل يشير إليه وهو يرفع كأسه، فوجد ان النادل قد وضع كأسه هو الآخر امامه، فرفعه وتبادلا التحية، وهما يرتشفان الفودكا ويدخنان. كاد الرجل ينهي طعامه الا ان الشراب امامه كان وفيراً ولا حظ الرجل المشرقي، ان الرجل العجوز يضع امامه زجاجة فودكا كاملة لم يكد ينهي نصفها حتى الآن، بالرغم من انه قد انتهى من تناول وجبة العشاء.

ـ لابد انك حديث عهد بالبلد؟

سأل الشيخ العجوز فأومأ الثاني:

ـ اجل.

وهز رأسه راضياً عن نفسه، وكأنه يريد ان يحزر من أي البلاد هذا الذي يجلس امامه، ولاسيما ان الاحتمالات كثيرة امامه، من الممكن ان يكون رومانياً او يوغسلافياً او بلغارياً او يونانياً او اسبانياً او من امريكا اللاتينية، وربما يكون هندياً او باكستانياً.

الا ان الرجل القـــادم من وراء البحـــار اراد ان يجامله ويفسح له مجال التفكير فسأله:

ـ وكيف عرفت اني غريب؟

وضحك الآخر ضحكة عريضة، باتت اسنانه المتآكلة في مقدمة فمه، وزادت تقعضنات رقبته، وهو يرفع رأسه إلى الأعلى كمن يقول سيماهم في وجوههم، الا انه اراد ان يجامل الضيف فقـــال ـ بنظرات المتســـائلة، وتعب الســـفر مازال مرسوماً على محياك.

ـ اصبت.

ـ ويظهر انك تأتي إلى هذا المطعم لأول مرة؟

ـ هذا صحيح.

وتلفت يمنة ويسرة، ثم تفرس وجهه جيداً، وقال بصوت خفوت:

ـ هل انت من بلد الأصدقاء؟

وهز الآخر رأسه إيجاباً، فنظر العجوز وتفتح وجهه عن ابتسامة عريضة، كادت عظام وجهه تصطك مع بعضها، وهو يصفق بيديه النحيلتين:

ـ انني عرفتك حقاً.. انكم رجال.

وقال الآخر:

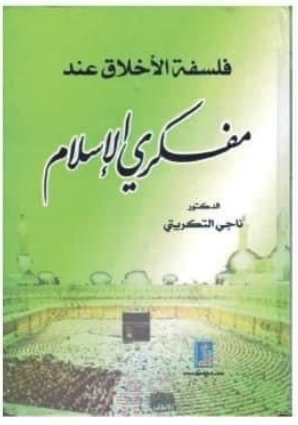

ـ هذا يعني انك ذكي.

قمد الرجل الشيخ يده المعروقة، وهو يصافح الضيف بحرارة، حتى شعر الثاني بصلابة يد الرجل مع كبر سنه وتقدمه في العمر، الذي اضاف:

ـ انتم رجال اني اهنئكم.

ولم يفهم الجالس اول الأمر، إذ فتح علبة سجائره ليجدد التدخين، لكن الآخر قدم علبته الخاصة وهو يلح بحرارة، ان يدخن من سجائره فسحب واحدة شاكراً وساعده في إشعل السيجارتين، واحد بعد الآخر.

ـ منذ كم قدمت إلى هنا؟ لقد نسيت.. اعتقدك اخبرتني الآن.. قبل قليل.. اعني منذ متى غادرت ارض الوطن؟

ـ منذ اسبوع تقريباً.

ـ هاه؟ انك إذن عشت ايام الحرب هناك..

وادرك الآخر انه يقصد حرب ٦ تشرين ١٩٧٣، التي لم يمضي عليها اكثر من شهر بعد، فهز رأسه مؤيداً.

قال المواطن وقد شرب جرعة كبيرة من كأسه ـ :اتدري؟ انكم انتصرتم. فأنا جندي ممارس، وقد خضت نيران الحرب العالمية الأخيرة.

وادرك الآخر ان المتحدث لابد ان يكون قائداً متقاعداً فسأله؟

ـ لابد انك كنت برتبة كبيرة خلال الحرب.

وهز يده مبعداً الألقاب:

ـ هذا لا يهم.. لا يهم ابداً.. ليست العبرة بهذا، انا جندي كما قلت لك، وقد جربت الحرب واهوالها اتدري.. انا لست ممن يريدون الحـــرب، ولا من الداعين لها فأنا ذقت مرارتها وقضيت حياتي جندياً، وجربت حلاوة الحياة ومرارتها.. انا.. اعني إذا فرضت الحرب على بلد فرضاً، فلابد ان يحارب.. لا بـــد ان يدافع عن حـــدوده، ان يذود عن شـــرفه.. فما معنى السلام والعدو قد احتل جزء من البلاد؟ أين الشرف والغرباء قد وطئوا ارض الأجداد.

وضع النادل الطعام امام الزبون الجديد، فسحب الرجل العجوز منديلاً ورقياً من فوق المنضدة، وبدأ يمسح شفتيه، ثم التفت جانباً وبدأ يتكلم مع نفسه، وكأنه يخاطب الشارع والبرد وظلام المساء.

ورفع الزائر ملعقته الأولى إلى فمه، فرفع الآخر كأسه وشرب رشفة قليلة وهو يوضح:

ـ أتدري؟ ان الفودكا تحمي من بردنا القاســـي.. هل عندك معطف؟

وأشار الثاني:

ـ اجل فقد علقته هناك، في محل وضع المعاطف.

ـ حسناً فعلت والا ستتجمد قبل ان يأتي المساء.

التفت إلى جوانبه، فلاحظ ان الآخرين مشـغولون في الحديث وتناول الطعام، فقال وكأنه يريد ان يواصل حديثه، إذ خفت كلامه عن السابق:

ـ أتدري.. بلدنا هدف للطامعين.. خيرات كثيرة وموقـــع ارضنا طريق للعابرين، ولذا فأننا دائماً عرضه للغزو.. مرة من الغرب ومرة من الشرق ونحن صابرون.. كنت جندياً.. نفذ الأوامر تارة.. وأوجه الأوامر تارة أخرى.. اننا هنا كنا نتبع اخبار حربكم عن طريق الصحف وإذاعات، ولكن ليس الخبر كالعيان.. اما انا فكنت ارى كأن كل شـــيء يتحـــرك امامي.. كنا نهجم إذا رأينا من العدو ضعفاً.. ونتحـــصن إذا زادت قوة العدو فجأة.. ولكننا لم ننسحب ابداً.. اتدري كم مات منا خلال الحـــرب الأخيرة وهو في الخطوط الأمامية ونيران العدو تمطرهم ليل نهار.. لكنهم ابو الانسحاب، او التسليم اننا رجال شجعان، والتاريخ يشـهد لنا بـذلك، وانتم كما تعلم لا تختلفون عنا لبباً ...كيف؟

سنكهم الضيف، وهو يتوقف عن بلع لقمته.

فرفع الآخر كأسه من جديد:

ـ لقد قـــرأت في الأســـفار، كيف ان بلدكم هو الآخر هدف للطامعين سواء ان كان هذا الطامع غربياً ام شرقياً.. وهكذا نحن، اسمح لي ان اصب كأساً للفودكا، كما اريد ان اشعل سيجارة.. طعامك لذيذ.. انا احياناً آتي إلى هذا المطعم لتمتع بوجبة ذات نكهة شرقية.. انا اعرف انكم تحبون الرز.. او ربما انه الصحن المفضل في طعامكم.. البلد الذي لا تطعنه حـــرب لا يمكنه ان يتمتع بـرغيف لذيذ في يوم من الأيام.. انا استغربت كثيراً، كيف تقبلون توقـف إطلاق النار، بعد ان بقرتم بطن العدو في خنادقكم وعبرتم إليه، بعد ان حطمتم اكبر حاجز اسطوري في التاريخ؟

ووضع الآخر ملعقته امام الصحن، وكأنه احتج او انه اراد ان يغير موضوع الحديث، وفي الوقت نفسه رفع كأسه فرفع الرجل الآخر كأسه:

ـ صحتك.. صحتكم.. انتم مثلنا تماماً.. الطامعون الكبار لا يريدون لكم الراحة.. ولا يريدون لكم الاستقرار.. لأكم بعد هذا ستتجهون إلى بنـاء بلدكم، والآخرون لا يريدون ان تعمروا ارضكم.. انهم يريدون ان يمتصوا دمائكم ولا يهمهم ان يتركوكم تعيشـــون في ارض الخراب، اتدري؟.. كنتم تتابعون الحرب بأعصابكم وحو اسكم المرهفة.. ونحن هنا لختلف عنكم.. اما انا اقصد.. انا شخصياً فقد كنت اتتبع الأخبار بأعصابي لا ادري.. ربما سر المهنة قد شدني إلى ذلك. ان التجربة السابقة كانت شديدة.. اغلب جنودنا ماتوا دون ان يعرفوا معنى مصافحـــة العدو او الجلوس معه على طاولة واحدة.. كيف يجلس إنسان حول مائدة مستديرة مع اجنبي، دخل بلاده غازياً؟ ليس هناك حل في مثل هذه الحالة الا الحياة او الموت.. لا وسط هناك ابداً.. اتدري كم هي الوف الألوف، التي خســرناها في الحـــرب العالمية الأخيرة.. ليس المهم هذا الآن، الأهم ان تتطرد هذا الغازي الذي جاء يســعى من بعيد، كأي معتد أثيم.

ونظر الزائر إلى المواطن، وهو يتمهل في تناول طعامه، فوجد بعض خصلات من شعر رأسه الأشيب قد تهدلت إلى الامام، كما انه ميز عينيه الصغيرتين، وهما تتنظران بدقـــة وذكاء وهما تتلقطان الأشياء بسرعة فائقة، فقدر انه خلف وراءه اكثر من سبعين عاماً، الا انه مازال صلب العود، إذ لم

www.palms-news.com

نخيل نيوز

يلبث ان رفع رأسه إلى الأعلى، وقد اربد وجهه وهو يزيد:
ـالحرب.. أتدري ماذا تعني الحرب؟ الحرب تعني خراب المدن.. انها تعني قتل الاطفال وتشريد الامهات.. انها تعني ترك الأطفال يتامى والنساء ارامل والفتيات عوانس.. انها تخلف وراءها الخراب ومزيداً من السيوت الدعارة والمشاذين..انا كنت جندياً وقد شاركت مشاركة فعاله خلال الحرب الأخيرة.. ان الذي جاء من وراء الحدود متحدياً، ماذا تقول له: أتفتح له ذراعيك مرحباً؟ أتمد له يدك مصافحاً؟ أتترك له نساء بلدك يبقر بطونهن ويجز شعر رؤوسهن، وهو يقهقه عالياً؟ الحالة هنا تختلف يا بني..انك في هذه الحالة تدافع عن كيانك..تقاتل من جاء يسلبك ارضك..فكيف به إذ تخطى الحدود واقام امامك وجهاً لوجه، وهو يقهقه ملء شدقيه فتجرأ؟

واغمض عينيه اليسرى تاركاً، او ربما اغمضها بفعل تخضن الجلد حولها، إذ سرعان ما نظر إلى الشارع، عبر زجاج النافذة وهو يتذكر:
ـلقد اصبت عدة مرات .. وفي كل مرة تكتب لي الحياة .. وما ان اكسب القوة الكافية حتى اعود إلى الجبهة من جديد .. لقد قتل اغلب زملائي في المعركة وما بقي منهم، ماتوا واحداً بعد الآخر. ربما بقي منهم بعض الأحياء، فقد كنا نترسل إلى وقت قريب ولا ادري الآن اين صاروا.

واشعل سيجارة جديدة، ثم قال، بعد ان نفث دخان سيجارته بهدوء:
ـلا تعتقد ان بلداً يدوس الأجنبي ارضه ويتوغل المواطن عن رد هذا المعتدي، كيف يمكن لهذا البلد ان يقف على قدميه.. انه سيبقى يعيش في اساطير وكهوف الف ليلة وليلة.

وتوقف لحظة إذ تذكر الكلمات الأخيرة التي ربما تلفظ بها سهوا وهو يضيف:
ـالعفو .. ماقصدت هذا .. بل البلد الذي يخسر نصف رجاله في ظرٍ المعتدين فان النصف الآخر سيعيش في خير وكرامة، وسيبقى بلده من جديد .. انا نفّت ويلات الحرب وعشت مرارتها، انا لا ازمن بها، إذا كانت حربا للاعتداء على حقوق الآخرين، او للسيطرة على خيرات الآخرين .. لكنني يا صديقي (ولم يقل يا بني) لا اعتقد بسلام خنوع، وارضي تحت رحمة سنابل الغرباء، الذين جاءوا هنا من وراء البحار غازين محتلين..

اجاب الضيف وقد انتهى من تناول طعامه، بعد إذ اشعل سيجارته بعصبية ظاهرة:
ـولكن الاتفق معي، انها لعبة عالمية، اتفق عليها الغرب والشرق.

وسحب الآخر من دخان سيجارته، وقد سره منظر التبغ يحترق امام عينيه بسرعة فواصل:
ـهذا شيء جيد .. هذا شيء عظيم .. هذا معناه، انكم ادركتم جيداً ان احد الأطراف يقدم لعوكم المال، ويقدم له الجانب الآخر الرجال .. انكم إذن وعيتم امركم، واقتسّتم على جلية الأمر ان هؤلاء يرشون الرماد في عيونكم واولئك يضحكون على ذقونكم.

ضحك الثاني ضحكة عريضة لهذه الأمثلة المسلخرة، التي في الوقت ذاته، تصيب كبد الحقيقة. اقبل التالي يحمل الصحون الفارغة فتوقف الجندي القديم عن الكلام، وطلب منه الثاني ان يجلب فنجانين من القهوة.

وواصل الآخر، وكأنه يكلم نفسه، إذ يدعب حافات الكأس بأطراف اناملة:
ـالحرب .. انها الحرب .. ان البلد الذي يخوض حرباً في سبيل صد غازٍ اثيم حتى لو خسر الحرب وفقد الرجال، فان التجربة ستجعله يعيد التفكير في امره، ويبني كيانه بناء جديداً. ان الحرب .. واعني الحرب الحقيقية، التي يخوضها الشعب بكامل قناته، تجعل ذلك البلد يتطلع إلى قيم جديدة، فيدوس بعدها على حياة التوغل ولا يقبل بحياة الاستسلام لكل من يدق في جوق جديد، ويصبح الشعب صاحب الكلمة الأولى بحق وحقيقة، لأنه خاض التجربة وقدّسى من آلامها، فلا بد ان ينظر بعدها بمنظار جديد بعد ان خلف وراءه حياة التكاسل والخنوع.

وحرك رأسه إلى الأعلى، وهو ينظر إلى الرجل الذي شعر انه ربما قد اثمه من خلال سرد ذكرياته الخاصة، فأردف قائلاً:
ـالعمارات بنيت، كما ترى، بأيدي الشعب نفسه، والشوارع رصفت بأيديهم، انكم قد انتصرتم بالحرب حقاً وقد تكشفت عورة عدوكم امام اعين العالم كافة، وقد عرفت الناس الدنيا لأول مرة منذ ثلاثين عاماً ان عدوكم هذا سر عان ما يخور هاربا في متاهات الصحراء .. ليس في هذا ادنى شك، بل الغريبة ان تقبل نفوس ضعيفة وقد بإطلاق النار، وهي في اوج الانتصار .. أتدري؟ اسبو عان مضت من حرب ذعلية والعدو تحت رحمة نيراني .. هل هناك لعبة؟ هل هناك مؤامرة من وراء الستار؟ انت لا تدري كيف دخل عدونا المدن واحدة بعد الأخرى، ونحن نقاتله من شارع إلى آخر ومن بيت إلى بيت، وما فكر احدنا بالاستسلام قط لأننا نعرف ان الجندي الذي يموت سيحيا غيره بعزّة، والبيت الذي سيهدم سيبنى بيت اجمل منه واكثر قوة.

ونزل الآخر جليسه سيجارة، إذ سره هذا الاسترسال من هذا الجندي العريق، وهو يروي ذكرياته عن الحرب، فسأله مبتهجاً:
ـاسعدتك إذن بداية حربنا الأخيرة ضد عدونا؟

وسرعان ما نفث الرجل دخان سيجارته في فضاء المطعم، وهو يلتفت إلى الشارع لحظة، ثم يواصل كلامه مجيباً:
ـاسعدتني؟ تقول اسعدتني؟ انها كانت في الحقيقة حرب الانتصار .. إذ شئت دقة التعبير، فان سيف الحق قد شهر في وجه الباطل، وقد قصم حد السيف ظهر العدو إلى نصفين من اول ضربة كنا .. أقول كنا نتصيد العدو الزاحف، ونتصب له الكمائن في كل مكان، وسرعان ما ننقض عليه مرة واحدة، فنبيد جنودهم عن آخرهم. هكذا يكون الأمر دائماً للأمة التي تريد ان تعلم المعتدي درساً لا ينساه انها دائماً حرب صاحب الأرض الحقيقي، وعلى هذا المنطق الذي يأتي متطفلاً عبر الحدود .. أي نعم .. اني أتذكر جيداً .. عندما هاجمنا العدو خلال الحرب العالمية الأخيرة وقد توغلته الهائلة ودخل ارضنا وبدأ يهدم مدننا ويحطم منشآتنا .. انذا لم نتهاون ابداً .. اتدري كم هم الرجال الذين ذهبوا ضحايا ذلك الهجوم العنيف؟ اتعلم كم هم الأطفال الذين ذبحوا ابرياء، والنساء اللاتي هتكن على يدي جنود العدو؟ اني جندي وقد خبرت ذلك بنفسي وانا أقتل مع اصحابي، ابناء الأرض كانوا يموتون واحداً بعد الآخر، دون ان يفكروا بتسليم او وقف إطلاق نار او مصافحة العدو في يوم من الأيام. خبرت ذلك عن تجربة خضتها بقسوة وعناء .. ان الإنسان لا يستطيع ان يقدر معنى الحرب دون ان يشارك هو نفسه فيها ويخوض غمارها. ليست العبرة في ان يدخل العدو مدينة او يكتسح ارضاً، فليس هذا الانصر مؤقت و تقدم إلى الامام، وليس هو الانتصار ماذا سيكون لو دخل العدو مدنكم؟ أتدري؟ هذا هو بداية الانكسار لعدوكم .. وتلك هي بداية نهايته. انه سيتمزق ومن ثم يتلاشى إلى الأبد ويذوب في صحرائكم الواسعة اللاهبة، التي ستبتلع رجاله إلى الأبد .. ما انهى نابليون الاجتياح روسيا الواسعة التي ليس لها حدود كما فعلت فيما بعد بهتلر .. وهكذا ستفعلون بجيش عدوكم لو ظل نفسكم وصبرتم وسحبتم رجاله إلى بطون الصحراء عند ذاك سيخضع .. أي نعم سيتيه في عرض الصحراء وسيغرق بين كثبان الرمل. إذ تحادي العدو في ارضكم وسويت له نفسه، ان يدخل مدنكم، فليس هذا معناه انه انتصر عليكم. انها بداية انتصاركم. انها بداية حرب العصابات. عصابات الأنصار.. حركات المقاتلين..

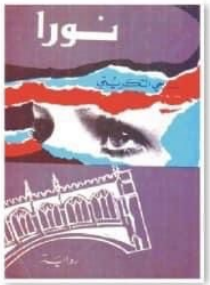

فدائيو المدن.. فدائيو القبائل في كل مكان.. أتدري ماذا تعني كل هذه الاصطلاحات؟ انها تعني انكم تضعون العدو في شبك لا يستطيع منها فراراً.. عند ذلك تطبقون عليه من كل جانب.. هكذا نفعل معه.. وهكذا انتهى محتل ارضنا، وهكذا سينتهي محتل ارضكم. أي نعم ينتهي، او ان اردت التعبير بكلمة ادق، فانه سيتلاشى بين ايديكم ويذوب تحت شمسكم المحرقة، عدوكم اعني.. الا تراه انما يضرب ضربة واحدة او على حين غرة، ثم يتوقف معتقداً الانتصار ولا يتقدم خطوة إلى الامام؟ ان الجبان دائماً يفعل هكذا، ولكنكم لو صبرتم عليه مرة لانتهى بين ايديكم.. انها مهما تكن الأمور فهي حرب حضارتين مختلفتين.. أتدري؟ وقاطع الرجل الغريب هذا الجندي الذي استرسل في سرد وقائع حياته:
ـماذا تقصد بحرب حضارتين؟

وهز الآخر رأسه متأملاً، وهو يزم شفتيه وينفض الرماد عن طرف سيجارته في المنفضة امامه:
ـاعني حضارتين.
ـوما شأنهما؟
ـانهما حضارتان مختلفتان في البناء والتركيب والأصالة.
ـلم افهم كلامك بعد؟
ـاعني.. يا بني.. ان لكم حضارة قديمة جذورها غائرة في اعماق التاريخ.. انتم اول من علم الناس القراءة والكتابة.. انتم اول من عرف حياة الزراعة والاستقرار في الأرض وبناء المدن.. انتم كتبتم القوانين المتكاملة لأبناء عدنكم، في الوقت الذي كان العالم فيه يعيش حياة التقاط الأثمار في الغابات. حضارتكم مكتوبة منذ الاف السنين، تلك ما اعني بالحضارة التي لها جذور في اعماق الأرض.. اما الحضارة الثانية فهي تلك الحضارة التي اغتنت فجأة وجاءت لتناطحكم بقوة دباباتها وطياراتها، تريد ان تزيحكم عن ارض تقطنونها منذ الاف السنين.. أرأيت؟ انها حضارة نزقة.. انها حضارة الطيش ان صح التعبير.. انها حضارة الغرور التي ربما ستقود العالم في النهاية إلى كارثة لا يعلم مداها الا الله. لقد نسيت هذه الحضارة الصبية ان لكم جذوراً عميقة في هذه الأرض، ولا يمكن اقتلاعكم مهما تضاعفت عندها قوة الحديد والنار.. انها رأت انها تملك الطيارة التي تستطيع ان تنقل البشر من مكان إلى آخر، فتصورت انها تستطيع ان تجمع اقوامها مختلفي المنازع والمشارب من مختلف اقطار الأرض لتجمعهم في ارض واحدة وتؤسس منهم دولة جديدة؛ أتدري لا تقاس حياة الدول بحياة الأفراد، وان دولة مثل هذه لا اساس صلب لها ولا علاقة لها بالأرض الا ادعاء املته قوة البشر المسخرة لهذه القدات المتناثرة في عرض الأرض. انا اقول ان النصر لكم في النهاية.. وما هذه الحرب الأخيرة و عبوركم الفريد من نوعه لطرد الأعداء من ارضكم الا درس لا يمكن ان يغفله إنسان ابداً.. انه الخطوة الأولى.. اتدري ان لعوكم اطماعاً لا تنتهي، وانه دائماً يأخذ الأرض بالحيلة. لقد بدأ زاحفاً إلى الأرض في اول امره، بحجة انه لاجئ من الظلم في بلاده آخر، وهكذا استمرت الهجرة، وما زالت الحيلة تبدو عوكم. انا جندي وأكلمك عن خبرة من ذاق ويلات غزو عدو لبلاده، وحارب مدافعاً عن ارضه ان عدوكم هذا تساده اكثر من دولة كبرى، و انتم تظنون ان تلك الدول ما هي الا صديقاتكم، و انها بحقيقة امرها مساندة لدولة عدوكم، ومع هذا فدولة كبرى تسندها بصراحة ويكل ما تملك من خبرة وقوة .. إتعني تلك الدولة التي تهيمن على نصف دول العالم؟

ـلا تنسى ان الأموال اليهودية هناك.. لا تنسى ان هناك اصوات الناخبين.. لا تنسى ان هناك الأيدي الخبيثة. انكم تنسون يا صديقي، انها تحتاج نفطكم، التي لولاه لشلت حركتها، ان عدوكم يعرف كيف يكسب تلك الدولة، وانتم على سعة ارضكم، التي تحتاجها تلك الدولة الكبرى، وتعدو تلك التي لها علاقات كثيرة مع تلك الدولة، التي هي بأمس الحاجة إلى ان تبني علاقات حسنة معكم لمصلحتها في طبيعة الحل، وليس لمصلحتكم، ولكن الذي اريد ان اقوله ان عدوكم استطاع دائماً ان يكسب تلك الدولة إلى جانبه، انتم لم تكسبوها حتى الآن إلى جانبكم سلماً، ولا مرغتم انفها في التراب، انتم قادرون على ذلك لان نفطكم عصب حساس في حياتها، وموقع ارضكم له اهميته في تنقل طيرانها وسلطيلها البحرية. ان عدوكم، يعرف كيف يعطي ويأخذ، وتلك الدولة تستعمل ارضكم كأرض مشاع في سبيل مصالحها. تعمل فوقها ما تشاء، وهل هناك امرأ من ان تمتص نفطكم وانتم تنظرون؟ وناقلاتها البحرية تتحرك في عرض بحاركم بحرية كاملة وتتزود بما تحتاج من مونتكم، دون رادع يردعها او معارضه توقفها عند حدها، فكيف إذن تريد ان تقف إلى جانبكم؟ إذا لم تعركوا اذنها بقوة، او تدقوا مسماراً كبيراً في نعش امبراطوريتها الكبيرة. فان الوزر يقع عليكم انتم وحدكم. اعفيني يا بني، إذا تكلمت عنكم كأمة واحدة دون ان افرق بين مواقف بلد و آخر من بلدانكم، فأنتم في نظري ابناء امة واحدة و عدوكم واحد لا يفرق بين قطر و آخر من اقطاركم، الا في سبيل مصالحة وتثبيت كيانه. ان الأمر منوط بكم. انا سنيقظنا فجأة على نيران لا تعدو تحرق قراناوزرو عنا غدراً، فهبنا رجلاً واحداً وبداً واحدة مدافعين دون ان نفكر بقوة عدونا. اننا فكرنا فقط في انه اعتدى على حقوقنا واخترق ارضنا، وهكذا كانت بيننا وبينه الحرب انتهت بهزيمته بالرغم من قوته الهائلة. الحق اقوى من الظلم دائماً و إذا كان عدوكم يتزود من اصدقائه بالسلاح الكثير، فأنتم تملكون الموارد الهائلة.. عندما تملكون النفط وتجعلونه سلعة بأيديكم تبيعونه إلى اية دولة كما تبيعون أي مادة اخرى، كما تبيعكم هي أي سلعة اخرى، ستصحو تلك الدولة الكبرى على حقيقة امرها، وتتحول من دولة ناهبة لخيراتكم وصديقة لعوكم، إلى بلد تهمه مصلحته بالدرجة الأولى، وسيدرك انه امام ند عنيد، لا امام ناس ضعاف ينهب ثروتهم ويصافح اعدائهم.
ـولكن.. لا تنسى ان هناك دولة كبرى اخرى في الطرف المقابل معنا.
ـها..؟ ومن قال لك هذا؟ وكيف عرفتم ان الدولة في الجهة الثانية من الأرض معكم؟ ـ الأحداث.
ـارجو! الا تمزج بين جدية الأحداث وهزلها، فهناك عمل وهناك كلام فهل كانت الدولة الأخرى معكم عملاً، ام في الألفاظ فقط؟ الم تشارك في خلق كيان عدوكم و هي ما تزال تعترف به في كل محفل وفي كل مكان؟ انا جندي قديم وها انذا الأن قد تقدمت في العمر وليس لي الا ان اجتر الذكريات. ان الدولة التي تتصورون انها معكم يجب ان تتخلى تماماً عن عدوكم، اما انها تصافح عدوكم بسالبد وتغازلكم عبر انوار القمر المساطع في كبد السماء، فهذا ما لا اريده منكم.. انها الحرب اننا بدأنا، أقول اني بدأت احكي ذكرياتي عن الحرب، فعندما اشتعلت الحرب عند اقدام عدوكم ما كان عليكم ان تتوقفوا ابداً، والنهاية ستكون في صالحكم. ان عدوكم اهتز كيانه، منذ الضربة الأولى، وكان عليكم ان تواصلوا.. إلى النهاية.. أي نعم إلى النهاية، حتى يتعب وينهار عدوكم، يعد ان يضيع في متاهات ارضكم الواسعة.

وازدحم الرواد في المطعم، فانحنى النادل امام الرجلين المتحاورين، وقد شمر إلى شاب وفتاة يقفان خلفه، وهو يطلب السماح لهما بالجلوس على الكرسيين الفارغين.

ما ان جلس الشابان القادمان حتى توقف الجندي القديم عن الكلام، وعندما دفع كل من الجالسين حسابه، نهضا سوية والرجل المواطن يقول للزائر الغريب وهما ينسلان درجات السلم معاً، وهو يتكلم بصوت خفوت .. :إلحق.. اين الحق؟ لو سأل العدل بين الناس لعشنا كلنا محررين سعداء، ولا حرب هناك ولا ظلم، ولزر عنا ارضنا برغبة وهناء..

وابتسم عندما وقفا امام الباب الخارجي:
ـماذا قلت؟ اغلب بلدان الأرض اصبحت مطمع انظار الدول الكبرى.. إنما تولي وجهك فخراب القوي مزروعة في ارض الضعيف، ولا ادري كيف ستنتهي الحالة.. هل ستعلن حرب تقضي على البشرية؟

وعندما ابتسم الآخر، صافحه هذا مودعاً ومتمنياً له طيب للإقامة. وشعر الزائر ببرد المساء، إذ تساقط فوق وجهه رذاذ بارد، فسوى من قبعته وتحسس اكمام معطفه، وهو يسير في الشارع، الذي يكاد يخلو من المارة في ذلك الوقت من المساء، وهو يفكر في امر هذا الرجل العجوز، هل هو من دعاة الحرب او السلم، وهل كان يهدي او كان يروي قصته من خلال تجربته خلال الحرب العالمية الأخيرة؟

www.palms-news.com

نخيل نيوز

*لكن رواية (ترنيمة امرأة شقق البحر) لم تنشر إلا في عام ٢٠١٢ !؟

ـ فعلاً هي نشرت في ٢٠١٢ لكني قد أنهيت من كتابتها قبل ٢٠٠٣ وبعود ذلك لهاجس عدم اكتمال العمل بعد، ذلك الهاجس الذي دائماً ما يلازمني وأعيشه كلما أعدت قراءة صفحات منها غيرت وأحياناً أحذف أكثر مما أضيف حتى قبل نشرها قد أجريت تغيرات عليها، وما زلت أشعر بذات الهاجس كلما شرعت بكتابة رواية جديدة؛ إذ كانت لها مقبوليتها عند جمهور القراء، وتربما يعود ذلك للمعايير الصارمة التي ألزمت نفسي بها، وهذا عام ٢٠٠٣ ولغاية ٢٠١٦ كتبت ثلاث روايات (مقتل بائع الكتب، فسحة للجنون، وظلال جسد ضفاف الرغبة).

* على فكرة رواية (غسق الخرامى) نالت جائزة الإبداع الروائي في العراق عن عام ٢٠٠٠، ورواية (ظلال جسد ضفاف الرغبة) دفعت إلى جائزة كتارا لفئة الروايات غير المنشورة عام ٢٠١٦ وفازت، ورواية (مقتل بائع الكتب) رشحت ووصلت إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية البوكر ٢٠١٧، فهل تكتب رواياتك وفقاً لمعايير المسابقات؟

ـ أظن أن معظم الكتاب يفكرون بالحصول على جائزة لأنها جسر عبور إلى حيث (الشهرة وتوسيع دائرة القراء، والفوز بجائزة أدبية لأي كاتب لحظة نادرة مفرحة. وأن الجوائز الخاصة بالرواية باتت تغري العائدات تعادل ما يتقاضونه جيداً إلى ما لا يتقبله هذه المغادرة غير المحسوبة ضارة ويمكن أن تلتك بمكانة صاحبها الأدبية، أن من يكتب مفكراً بالجوائز ومعتقد باشتراطات ومعايير المسابقات لن يكتب غير نص زائف يفتقر للصدق الفني، ناهيك عن عدم فوز ما بالجائزة أصلاً، ولحسن الحظ لست ممن يفكرون بالجائزة في أثناء الكتابة وشخصياً لم أكتب أبداً رواية على وفق معايير المسابقات والمحكمين حسب ما أتخيلها، لكن أكتب الرواية بحسب ما يمليها عليّ تفكيري وهاجسي وضميري، وحسب معاييري وقناعتي الفنية والفكرية وأن جاءت الجائزة بعد ذلك فأهلاً بها، أن الرواية بحالة إلى مجموعة من العوالم يجب أن يتمتع بها الروائي من خبرة ومهارة وأسلوب التعامل مع اللغة وتوظيف التجربة الحياتية وثقافته الموسوعية كعناصر أساسية فضلاً عن المخيلة الخلاقة والرؤية والقدرة على التنظيم والإقناع، بالإضافة إلى الحساسية أي حس التاريخ والواقع والحس الجمالي والحدث والقدرة على بناء عالم ونسق سردي هذه هي المعايير والموهلات التي تشكل عدة اختر فيها لا غنى عنها لأي روائي وكنت دائماً ما أحاول توسيع آفاقها وتعميقها في داخلي وأعد نفسي تلميذاً أبدياً في مسار هذا الفن السردي الكبير. وما زلت أرى من الوقاحة والإفراط في التبجح أن أدعي بأنني روائي! الكلمة التي ينعت بها تولستوي وبروست وليام فوكنر ومارکيز ؟ كل إنسان بحاجة إلى ضبط إيقاع حاجاته البيولوجية باعتبار ما يمكن الطاقة المؤثرة على سلوكه ومزاجه العام وسلامة الروح والعقل، ما يماثل هذه الحاجات البيولوجية في حياة سعد محمد رحيم؟

السرد حاجة بل غريزة أساسية تعادل الحاجات البيولوجية، الحاجة إلى الماء والطعام والنوم والممارسة الجنسية، وكذلك الحاجة إلى الأمن، ففي السرد طاقة استشفائية خلاقة. إن صحتنا النفسية وأحياناً البدنية تتطلب دخولنا في دنيا السرد. وللسرد بعد فيزيولوجي ونفسي، علاوة إلى البعد التاريخي والوجودي. يقول جون بارت إننا في الحقيقة أحياء كائنات حية؛ بقدر يقلقنا مهتمين برواية القصص لبعضنا البعض، إن من تضيق به الدنيا يفضفض حمأ في نفسه فيحكي يعيد القصة من أولها، يرتبها كما يرى، فيكون عندئذ بحاجة إلى متلق إلى سامع إلى قارئ، وعلم النفس التحليلي (لسيريي) يبحث عن مفاتيح حل المعضلة النفسية من خلال تداعيات الأفكار، من خلال السرد.

نحن أبناء السرد، كهفة معيده، الواقعون في أسره، في أسر سحره، فمن اللحظة التي ابتكر فيها الإنسان فن السرد انكسر نسق حياته البدائي فصار يفكر بكونه مركز الوجود، وأنه ليس معطى عرضياً للعالم، بل هو فاعل فيه ومغير. فيما صارت الحضارة الإنسانية ممكنة، فمع السرد بات الإنسان يعلم أنه مميز بوعي كينونته، وأنه صانع قيم، ومبدع تجربة فريدة، حيث السرد وسيلة لتنظيم فوضى التجربة تلك، واستخلاص معنى للحياة عبر علاقة البشر بعضهم ببعض وعلاقتهم بالطبيعة وما وراءها، لا شيء يقتن أكثر من السرد فنحن نبحث عنه حيث يمكن أن يكون وحيث لا يمكن، لا لشيء إلا من أجل نظمئن. فهو سلام الروح والعقل، يكفينا مع الوجود، ويكيف الوجود مع مآلنا. السرد حتى حين نعاين لوحة فنية أو صورة أو منحوتة وكذلك حين نسمع الموسيقى ..إننا بشر يقدر شغفنا في السرد. والسرد في نهاية المطاف هو اصطناء بالحياة، تشبث بها، ففي السرد سحر وجاذبية بمقدور امتصاص الحزن والحد من الإحباط، إنه يلهي سحيح لكنه في الوقت نفسه يمنح الغبطة، والأمل، ويساعد الإنسان في الصور على ممكن الطاقة فيه، يدله على الأفق الآخر، للخروج من النطاق الضيق للاصناع.

*قرأت لك عدة آراء ودراسات سياسية، هنا أود أن أسألك؛ هل يمكن عد الرواية المطبوخة في مطابخ الرأسمالية وجه آخر لأنظمة شمولية سبقت كالنازية والفاشية والستالينية؟

ـ عند التوقف في المعنى المعجمي نجده يشير إلى أنه شيء يتخذ بعداً عالمياً، والى هنا يبدو الأمر بريئاً وشرعياً، غير أننا عندما نذهب إلى معناه الاصطلاحي المتعارف عليه في حقول السياسة والاقتصاد والثقافة والإعلام فإن الأمر لا يسد من إضناعه للمساءلة التي قد تطيح بهذه البراءة وتنك الشرعية ولاسيما إذا جرت المساءلة على وفق لمعايير الإنسانية والأخلاقية العامة. لقد أحدثت العولمة اختلالات جمة وأصابت البنيان القيمي للمجتمعات جراء التغييرات السريعة الحاصلة في بنى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومن هذه الثلمة تحاول العولمة في إطار استراتيجياتها فرض قيمها البديلة، وحيث أن العولمة لا تسعى إلى خلق عالم مثالي قوامه العدالة والسلام والرفاهية بل المعكس، فهي ترتكز الثروة والقوة في جانب، والفقر والضعف في الجانب الآخر، وتتقلبت استخدام الآلة العسكرية الداشمة ضد من يناوئ توجهاتها. أن العولمة تتحول يوم إلى يوم قوة شبحية هائلة تسير ها مصالح واستراتيجيات وأطماع وتتسلل على الأصعدة كافة فهي تسعى إلى تغيير صور العالم والبطش بتوازناتها القديمة والتأثير في حياة الأفراد والمجتمعات وذلك فإن لها آليتها العاملة في حقول الاقتصاد والسياسة والثقافة والإعلام. إذا كانت العولمة من خلال الشركات عابرات القارات والمؤسسات والمنظمات المالية والتجارية الكبرى قد حولت أموالاً كثيرة انفتحت أمام منتجاتها ورساميلها فإن العولمة في الجانب الآخر ترتوم غزو العقول وتفتيت الثقافات وإشاعة النمط الحضاري الغربي ليسهل عليها، من ثم إحكام سيطرتها على العالم بأسره. وفي هذا فهي تعمل على عولمة الإعلام وجعله في خدمة العولمة ظاهرة وإيديولوجيا، فالعولمة هي إيديولوجيا الرأسمالية في ذروة احتكار السلطة والثروة، وهي التصور الشمولي لتلك الفئة من البشر التي ترتكز عناصر القوة كلها بيدها، لتجعل من العالم رقعة شطرنج هائلة، عبر محاولة تدجين الإرادات تحت سيطرة الرأسمالية الغربية لاسيما الأمريكية، وأختم بقول أحد منظري العولمة (الأمريكي فريدمان) "نحن أمام معارك سياسية وحضارية قطبية، العولمة هي الأمركة، والولايات المتحدة قوة مجنونة .. نحن قوة ثورية خطيرة، أولئك الذين يخشوننا على حق."

* وهل بالت العولمة القدر الأخير لإنسان هذا الكوكب وعليه الاستسلام كما الاستعمار ؟

ـ بدءاً، علينا أن نفهم أن هذه العولمة بصورتها وموجهاتها وقواها المحركة الحالية، على الأقل لا تنطوي على حلول سحرية لمشاكل العالم المتخلف والنامي، ولن تقودنا في ظل اختلالات القوى السائدة في العالم، إلى الفردوس المفقود على الأرض، كما تدعي وعليناً بالمقابل، أن نؤمن بأن الإنسانية في جانبها الخير تحوي من المعطيات ما تجعلها، إذا ما توفرت لها الإرادة والتصميم ومُسرط الفعل، أن تتماشى مع هذا المشترك الرأسمالي، من دون أن تكون عطية. إذن، فالسؤال الذي يفترض أن نطرحه على أنفسنا هو، كيف نتكيف مع عصرنا الذي يتحول بهذه السرعة المرعبة في كل الميادين، من غير الوقوع في شرك الاحتمالات السيئة، والجواب البسيط والمختصر في هذا المقام، هو أن نكون فاعلين من خلال المشاركة الإبداعية، واقتراح البدائل ذات الأفق الإنساني، مع بقاء حسنا وعينا النقديين يقظين على الدوام، وهذا يتطلب خلق مؤسسات حديثة في مجال الإعلام والثقافة، تتوسل بتكنولوجيا متقدمة وإعداد خبراء مختصين، واعتماد المواهب الوطنية وتطوير ها، مع وضع برامج واستراتيجيات واضحة وفعالة لها، وإذا كانت العولمة أكبر من كونها موضة عابرة فإنها بالمقابل ليست القدر الأخير لإنسان هذا الكوكب كما أثرت في سؤالك، ولا تحمل بالتأكيد الحلول السحرية الجاهزة لمشاكل المجتمعات كافة ولاسيما لمشاكل العالم الثالث كما ذكرت قبل قليل، كما لا يمكن أن تكون الأطروحة المثلى للعقل البشري، وقد دخلنا الألفية الثالثة منذ عقد، لربما كانت العولمة قوة كونية أشد مقدرة من الأشخاص والمؤسسات، ولكن ينبغي أن ننتبه إلى الأوهام التي أحاطت بها، والتي روجت لها وسائل الإعلام المسخرة طبقاً لعولمتها واستراتيجياتها. تلك الوسائل التي تكاد تصور العولمة وكأنها ذات قدرة كلية، بإمكانها أن تصنع ما تشاء وقت ما تشاء. والعولمة ستجد من يقاومها من داخل المجتمعات الغربية المتبنية لاستراتيجيات العولمة، وما سمي المثقفين الفرنسيين المتصدي للمنتجات الثقافية ذات الطابع الاستهلاكي التي تصدرها، وتروج لها أمريكا إلا مظهراً من مظاهر هذه المقاومة.

*الا تعتقد أن تورط المثقف بالسياسة لا يجب أن يصل إلى حد مغادرة الموقع الثقافي من أجل السياسة ومغرياتها، وحيث أن لا يسمى أن يكون بديلاً للسياسي في موقعه وأداء مهامه؟

ـ نظرياً إن الفصل بين السياسة والثقافة وبين أسئلتهما لا يفترض بالضرورة وضع معسكرين متقابلين أو متجاورين أحدهما للمثقفين وآخر للسياسيين، أن تأثير وظيفة كل منهما في استقلال عن الآخر لا يعني ألا يأخذ كل منهما الآخر بنظر الاعتبار.. إن بعداً سياسياً في الثقافي لا يقلده استقلاليته، وكذلك حين نتكلم عن البعد الثقافي في السياسي، ولا نعدم وجود سياسي مثقف، لعبته السياسة وصنعته بثقافة رصينة، ومثقف يحاور وينظر في الحقل السياسي، أو حتى يضع عيناً على السياسة ويتورط بلعبتها، أن كل سياسي يمتلك خطاباً واضحاً هو مثقف بالمعنى الواسع للمثقفي الثقافة والمثقف، ولكل مثقف هو سياسي بقدر ما تحوي ثقافته من بعد سياسي. فالسياسي يؤثر ويغير في الواقع المعيش بآليات السياسة المعروفة وعمل مؤسساتها فيما المثقف يؤثر ويغير الوعي باتجاهه الثقافي حيث يشتغل خطاب الثقافة. بالمقابل تتشابين النخب السياسية والنخب الثقافية منطقة رمادية حيث يتسلل بعض المثقفين إليها للتقرب من السياسيين لا لأداء دور سياسي وظيفة سياسية، أو العكس. وقد تكون لهذا أحياناً بعض حسناته. ويمكن أن ينتج عن ذلك أحياناً عواقب وخيمة، ففي المجتمعات المستقرة والمتحضرة مثلاً تمتلئ فرصة الوصول معاً إلى نوع من التناغم (الهارموني) على الرغم من بقائهما غالباً في حالة من توتر العلاقة بينهما، بينما في المجتمعات غير المستقرة في المنظور الاقتصادي والأمني والسياسي وغير المتماسكة حول هوية مشتركة في المنظور الاجتماعي، فلا شك أن أسئلة الثقافة ستتخذ منحى الصدام مع البيئة السياسية وتستدعي نمطاً معيناً من الأسئلة السياسية، المنبثقة من الحقل الثقافي فهذا لا يعني أن يحل المثقف محل السياسي أو أن يتماهى معه أو أن ينافسه في حقله، وإنما أن يكون نتاج المثقف جزء بناء في معمار النهضة المتوخاة ومشروعها الفكري والثقافي فلا يعزز قوة الثقافي سوى استقلاليته، وتجرده من تهمة مزاحمة السياسي على سلطته، وإذن المثقف لا يسعى (أو هكذا يفترض أن يكون الأمر) في يكون بديلاً للسياسي في مؤسسة وأداء وظيفته، ولا يريد أن يتنازل عن نطاقه الثقافي لينغمس في النطاق السياسي، وإذا فعل فإنه يكون قد خسر جزء لا يعوض من دوره ورهانه الثقافيين واحتراف السياسة. أن هناك من المثقفين، عندنا، من ينكر انتمائه بالسياسة، أو يتبجح بالسمو على الحقل السياسي، وفي هذا نجد مغالطة كبيرة، فالحقيقة أن السياسة تحاصر ه من كل جانب وتؤثر على أسلوب معيشته السياسة والسياسيين، لكنه أبداً لم يقبل بدأء دور سياسي مباشر وظلت سلطته مستمدة من مكانته مثقفاً وكاتباً. والمثقف المبدع، لاسيما إذا كان نجماً له شهرته الإعلامية، حين يتكلم في السياسة فإن الآخرين يصغون إليه باهتمام، حتى وإن ادّعوا غير ذلك. وفي سياقنا التاريخي الحالي، في عصر القلق والاضطراب واللايقين واللاعدالة والخوف، تصبح السياسة أقدر المثقف، لا بمعنى أن يغدو هو نفسه سياسياً وإنما أن يمتلك درية كافية بالمجال السياسي متخذ منه موضوعاً رئيسية للتحليل والنقد والتقويم فوظيفته ها هنا، هو أن ينغمس على السياسيين، ويجعلهم مكشوفين أبداً وتحت طائلة المساءلة، وأن تكون له رؤيته في كيفية إعادة تأسيس ذلك المجال بما يضمن تحقيق قيم الحق والعدالة والحرية والتقدم، مع تأكيد أن هذا ليست وظيفة المثقف الوحيدة.

*أنجزت بحثاً مهماً في الفضاء الفكري الماركسي "استعادة ماركس" فهل كان هذا الجهد محاولة منك لتمجيد مسبق فيه؟ وفكره، وألا تعتقد أن ثمة تحيز مسبق فيه؟

ـ لم يكن هدفنا من هذا الجهد تقريظ ماركس، إنما مسعى لإجابة على تساؤلات، منها هل يمكن تصور مستقبل هذا العالم خارج الأفق الذي كشف عنه كارل ماركس؟ وهل ان الرأسمالية واثقة من إمكاناتها لتجنب المصير الذي رسمه لها ماركس عبر قراءته العلمية الجدلية لنظامها (الاقتصادي، الاجتماعي)؟ وإذا كان هناك من ينكر مثل هذا السؤال ويعدّه تحيزاً مسبقاً لماركس وفكره، بإمكاننا أن نجد لهذا التساؤل صيغة أخرى: هل يمكن التفكير اليوم، بوضع عالمنا الراهن في تناقضاته واختلالاته وقتاماته من غير معولة ماركس؟ ومن غير استحضار منهجه واستلهام فكره النقدي؟ ربما يواجه هذان السؤالان الاعتراض عينه.. عليه للبحث الآن عن صيغة أقل شدة من تلك الأسئلة بمجملها؛ هل من حاجة في هذا العقد من القرن الواحد والعشرين لماركس ومنهجه وفكره، أو لمجمل تراثه؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب نسأل أيضاً: إلى أي مدى وكيف؟ وفي صيغة أخرى معدّلة: هل بالإمكان حقاً إقصاء ماركس ونسيانه؟ هل بالإمكان نشرع خطاً إنسانياً جديداً من غير ماركس؟ هل يمكن المضي قدماً من غير ماركس؟

إن ماركس وغيره من مفكري العصر الحديث قد عانى من الفهم القاصر، والتمسك بمقولات له منزوعة من سياقها في النص ومناسبة قولها، وبالباسها دلالات لم يقصدها، وقول أحياناً بما لم يقل وعده ذلك حورب ورفض، فمثلاً رفضه البيرليون نتيجة دعوته لديكتاتورية البروليتاريا، وقيام أنظمة استبدادية باسمه، ورفضه القوميون والشوفينيون في كل مكان لأنه قال "إن العمال لا وطن لهم.. يا عمال العالم اتحدوا". كما رفضه المتدينون في المشرق والمغرب لأنه قال "إن الدين أفيون الشعوب" وبطبيعة الحال رفضه الرأسماليون لأنه حمّل تحطيم نظامهم الاقتصادي والاجتماعي، أما أشد المتزمتين في رفضه فهم أولئك الذين لم يفهموه، لذا هيك إن ذاتوا قروزه في الأصل، بالمقابل أعطى الدوغمائيون من الماركسيين الذي حولوا الماركسية إلى دين وعقيدة مغلق الحجة لأعداء ماركس للتنكيل به، للنيل منه ترجمه وإقصائه. لم يخلق ماركس ديناً ولم يبدع إنه فعل ذلك، وأولئك الذين أحالوا الماركسية إلى دين خذلوا ماركس حتى وإن لم يفطنوا. وليس من مصلحة الماركسية التماهي مع فكر ما لو أنه عقيدة لاهوتية أخرى فالماركسية ستحيى فقط هي تتطور في صراعها مع الدوغمائيات الجامدة، إن الوعي الإنساني سيكون بحاجة إلى معولة ماركس طالما كانت الرأسمالية قائمة، وحتى إلى ما بعد تقويضها وتحقيق وعد ماركس أو ما يقترب منه. وحتى أولئك الذين لم يقرأوا حرفاً واحداً من كتابات ماركس الفكرية سيظلون مدينين في جانب من وعيهم لماركس، فتجاهات الفكر الإنساني طوال المئة والخمسين سنة الأخيرة اغترفت، بهذا القدر أو ذاك، من منبع ماركس الغزير والثري، وبحراجعة متفحصة لمجمل النظريات والمناهج الفكرية والفلسفية التي وضعت بعد ماركس للمس أن معظمها استفادت من المنهج الماركسي والمفاهيم والمعايير الماركسية.

نخيل نيوز

حوار افتراضي لذكرى الراحل المقيم

الكاتب والروائي سعد محمد رحيم:

الرواية تساوي الحياة ومن لم يترك رواية قبل أن يموت كأنه لم يعش

صفاء الصالحي

مفكر أنشغل بالبحث في القضايا الفكرية والسياسية والفلسفية والثقافية التي تمس حياة الإنسان ووجوده ومستقبله، وهو قاص وروائي بامتياز، وكاتب تأملي ذو مشاريع فنية وتنويرية لتنطلق من رؤية خاصة ذات أبعاد وجودية ترتكز ثيماتها على الحياة والموت والحب والحرية والمصير. شكلت غزارة وتنوع نتاجاته السردية والفكرية والمعرفية والنقدية إضافة معرفية بارزة في الثقافة العراقية والعربية. ولد سعد محمد رحيم في عام ١٩٥٧ في مدينة جلولاء ثم انتقل إلى مدينة السعدية التي لا تبعد عن مسقط رأسه سوى بضعة كيلومترات، وفيها أتم دراسته المتوسطة والثانوية قبل نيله شهادة البكالوريوس في الاقتصاد من الجامعة المستنصرية ١٩٨٠، عمل مدرساً لمادة الاقتصاد في الثانويات المهنية في جلولاء وبعقوبة وبغداد. مارس العمل الصحفي لمدة ونشرت أعماله الصحفية في بعض الصحف والدوريات العراقية والعربية منها (المدى، أفكار، الرافد، الصدى، الأقلام، الموقف الثقافي، المسار، دبي الثقافية، السفير). ومن مناطق الاشتباك ما بين السرد الصحفي والسرد الأدبي باعتبارهما أشكال فنية وأدبية غير منفصلة تماماً، أعتمد التأثير على لغته السردية التي اتسمت بالبساطة والبرقية المشذبة، بالإضافة إلى التناغم مع القوالب الصحفية لا سيما الاستقصائية منها. سعى سعد محمد رحيم إلى تأكيد مكانته الإبداعية في مجالات عدة، وكان سعيه حثيثاً لحصد صياغة نتاجاته الأدبية والمنهج الفني وبضارة الرؤية وأناقة الأسلوب، دون أن يغيب عنها روحية الناقد اليقظ الماهر في صناعته. عند الوقوف على سرديات الحرب لنتجارب من جايله في ثمانينات القرن الماضي أو بعدها، تبرز لنواجهة تجربة سعد محمد رحيم كأبرز وأهم التجارب السردية التي صورت محنة الحرب بكل تفصيلها وتراجيديتها، وكتبت بكتابة بها وانتصرت لقيم الحياة والحرية والسلام. والمتتبع لاشتغاله السردي يلمس نزعته ومذهبه الفني المتجه إلى الواقعية والتقريب المعبر عن الواقع في أغلب منجزاته الإبداعية. وتنطلق هذه الواقعية من الواقع الطبيعي والاجتماعي المرتبط بالإنسان وصراعاته وتفاعلاته من أجل تقعر العالم وتفعر الواقع وتحقيق العدالة الاجتماعية نتيجة الظلم والقهر والاغتراب الذي يعيشه، غير أن براعة وحرفية توظيف لعبة الخيال المذكرة التي يمتلكها، وأثرها بتقنيات وآليات حداثوية متنوعة مفعمة بروح تجريبية تنفلت نصوصه من الواقعية منفعياً. كما سعى رحيم جاداً لتعميق رؤيته عن العالم والحياة من خلال معالجات رصد للتاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي للمجتمع عبر تقديم نماذج نوعية ذوات خلفيات واقعية متمثلة في شخصيات متقنة تخذلها الواقع تتسم بالتمرد والجرأة وغالباً ما تفوص في بحر الأسئلة الفلسفية والوجودية، ولربما تحمل شذرات من ذاته أحياناً، وقد تجلى ذلك بوضوح في شخصية كمال في رواية (عشق الثواكي)، وسامر في رواية (ترنيمة امرأة). (شفق البحر)، ومعبود الرزوق في رواية (متقل بانع الكتب). انتبهت الحركية النقدية إلى عمقه السردي والفكري وتناولتها أهم الأسماء النقدية في دراساتها ومقالات عديدة. كما ابتسمت الجوائز لها، إذ حاز جائزة الإبداع في مجال القصة القصيرة بالعراق عام ٢٠١٠ عن مجموعة (زهر الثوز)، والجائزة الأولى في القصة من ملتقى القصة العراقية عام ٢٠١١، وجائزة الإبداع الروائي في العراق عن رواية (عشق الثواكي) عام ٢٠٠٠، وجائزة كنانا للرواية العربية فئة الروايات غير المنشورة لعام ٢٠١٦ عن رواية (ظلال جسد. ضفاف الرغبة). ولعل روايته الرائعة (متقل بانع الكتب) التي صدرت عام ٢٠١٦ التي وصلت إلى القائمة القصيرة للبوكر العربية كانت ذروة التحول في مسيرته الأدبية التي امتدت إلى أكثر من ثلاثين سنة، وكان الراحل يستعد لإضافة الكثير من الإنجازات الإبداعية إلى رصيده الذي بلغ أكثر من عشرين اصدرا متنوع على مستوى القصة والرواية والدراسات الفكرية والنقدية قبل أن يغيبه القدر في التاسع من نيسان ٢٠١٨ بجلطة دماغية مفاجئة في محافظة السليمانية. رحل سعد محمد رحيم جسداً لكن ما زالت أفكاره حاضرة في ساحة النقاش الفكري والأدبي محلياً وعربياً. هنا نحن اليوم نحتفي بإسهاماته السردية والمعرفية التي خلدها في محاولة منا استعاده جزء من سيرته وإراءه وأفكاره. فليما يلي حوار متخيل طرحت فيه أسئلة افتراضية على سعد محمد رحيم لعلها تجد أرفقتها بإجابات منتخبة قد اختارتها من بطون عدة كتب أنجزها ولقاءات أجراها قبل رحيله.

*ثمة علاقة وثيقة بين طفولة الكاتب وإبداعه، للرحلة بالذاكرة إلى أقصى بدايات العمر حيث الطفولة، هل كانت تلك الفضاءات والأمكنة محطة مهمة في مسيرتك الإبداعية، هل لنا أن نتعرف على بعض صورة هذه المحطة؟

- في أواخر عام ١٩٥٧ ولدت في مدينة جلولاء، وفي ذاكرتي مشاهد ونحن نعبر أسفل جسر القطار صاعدين تلاً حيث كان أبي يشيد بيتاً جديداً من الطين والخشب، أتذكر صاحب المحل المجاور لبيتنا يشاربه الشاي وشواربه الكوبي وأنا أشتري منه كل يوم بخمسة فلوس نوع من البسكويت لا يبيعه إلا هو، مشاهد أخرى كثيرة ما تزال عالقة في ذاكرتي عن سنوات طفولتي في جلولاء. وفي لحظة نزوة وحلم شاسع بناع أبي أملاكه كلها في البلدة لينادر إلى بغداد أسوة بأخويه اللذين يكبرانه، وانتقل إلى بيت مؤجر في السعدية موطن الأجداد لمحطة مؤقتة لكنه فشل في مشروعه وفقد كل ما يملك، حتى بانت السعدية المحطة المؤقتة هي المستقر الأخير وكن يفتح في (خراجنا) إلى بغداد أو بعقوبة، جلولاء والسعدية مدينتان تتراميان حتى أعالي الكتف، لا أحد يمكنه الفصل بين أسمي المدينتين عن الآخر، فهما يتداخلان في نسيج التاريخ، ويتعانقان على مهاد الجغرافيا، ويتطابقان بمعايير الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، ويشتركان في ميراث واحد نفسي واجتماعي. اسم جلولاء أقدم من اسم السعدية بأكثر من ثلاثة عشر قرناً، لكن معركة جلولاء الشهيرة بين المسلمين والفرس، كما يقررها المؤرخون، جرت على أرض السعدية الحالية، أما من حيث الاستيطان فإن السعدية كانت مولن حضارة قبل ذلك بأربعة آلاف سنة، وما (تل سليمة) إلا واحدة من التواخص العالية على عمق تجذر الإنسان في هذه الأرض. هوية المدينتين اجتماعياً مركبة، ترقص رتابة البعد الواحد والتطابع الواحد، وتؤكد على التهجئة التي هي القوة، دالة التماسك الإنساني الحد هش والفريد، وجمال التعدد والتنوع، وانتصار قيم العيش المشترك على ما عداها من قيم زائفة تختلقها السياسة والمصالح التافهة. لذا فإن ذكريات طفولتي وشبابي تنتمي إلى البلدة المفتوحة على سماء رحيبة شاسعة، والمالحة بخضرة وألوان تنعش الروح. تلك المواسم من سعدية السبعينات أبدا، في ضميري، لا تشبح مسرات طفولة لا تستعيدها سوى قوة الكتابة، أسعى لاستعادة ولو لحظة واحدة من ذلك السحر المميز الذي يربطني الحنين إليه، ذلك النبع السحري الأول الذي غرفت منه قاموسي بالكتابة. لقد تقاسمت ولعين سنوات طفولتي الوقع بالقصص والكتابة، والوقع بالسرد القدم، وفي مرحلة الثلث المتوسط تغلب عندي تماماً هوس الكتابة والأدب على حلمي في أن أكون لاعبا، ورحت أقرأ من مكتبة بيت خالي كتب توفيق الحكيم وطه حسين وعباس محمود العقاد، ومن ثم روايات نجيب محفوظ، حتى إذا قرأت (الأم) لمكسيم غوركي، وذهب مع الريح) لمارغريت ميتشل، و(أحدب نوتردام) لفيكتور هيجو، وفي هذا الوقت أيضاً استحلتني مجموعة (بيت سيء السمعة) لنجيب محفوظ. ألح في حب القصة القصيرة، غير أن تورطي المبكر في حالم الأدب والكتابة لن يكتمل إلا مع غوايات ثلاث صنعها ثلاثة مدرسين في مرحلة المتوسط في ثانوية السعدية للبنين (الأستاذ الشاعر محمد حسين آل ياسين، والأستاذ عبد الرزاق، والأستاذ عبد علي).

حين أكون في جلولاء، يزدحم ذهني بمئة الصور، القطة تحت السرير، والدجاجة المنزلقة حول شجرة السدر، وزوجة أبي تلحق بي إلى سطح الدار مع صحن المهلبية أو الرز، وسيناريا الثاني فوق التل، ولحظات الختان المسيبة. وكيل تل شيء مطر يومي الأربعين في هذه الدنيا، وفيضان السعدية... الخ الخ... ولن أتملك طفولتي مالم أرسم خطاها على مسار السكة الحديدية التي تنحني بين وحول حقول السعدية وبساتينها، وأظن أن ما يستقر في الذاكرة هو عبق المكان ونكهته كأننا نشم تلك الرائحة المزكية التي غمرت طفولتنا بالمسرات، تمنحنا الكتابة عن أمكنتنا القديمة فرصة معايشتها معنوياً ورمزياً، حيث تتحول التفاصيل إلى موسيقى تسكن الروح.

* كيف وعبر تفاعلت مكنوناتك الشعرية والسردية في جنس القصة تحديداً؟

- لعل لحظة التجلي الأولى كان يوم شرعت بكتابة الشعر وأنا في الخامس لابستة. قلت أدون في دفتر مدرسي صغير مقطوعات وجمل منمقة ومسجوعة أقلد بها بسذاجة جاهة القصائد المنشورة في كتب القراءة المدرسية.. تكتشف أمر ذلك الدفتر معرضة للضياع، من بغداد، كلت تؤجر إحدى غرفتي بسيتا الموجر أصلاً في السعدية. سكتني يتعجب من أين نقلت تلك الكلمات؟! وحين خبرتها بأني لم أنقل هذه الكلمات بل كتبتها، احتضنتني وقبلتني! وكانت أذن ستكون شاعرا أقسم. بقيت أستعيد مذاق دفئها وعطر هذا وقبلتها على خدي لسنوات، لكني لم أعُ شاعراً كما تنبأت، ومنذ مطلع سبعينات القرن المنصرم كما ذكرت لك في إجابتي عن سؤالك الأول عن اكتشافي ذاك الكنز "مكتبة آدابي" قرأت عشرات الروايات البوليسية وروايات وأنا في الأول والثاني المتوسط، وخلال هذه الرحلة المحمومة بت أتحسس بشكل غامض قوام الكاتب الذي بدأ يتشكل في (هابي، وحينما تعرفت على العالم الساحر للقصة القصيرة، قرأت عدا لا بأس به من قصص المغامرات (شرلوك هولمز وأرسين لوبين) أولاً، ومن ثم بعض روايات نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وإحسان عبد القدوس حتى وقعت، بناء على نصيحة صديق، على مجموعة (بيت سيء السمعة) لنجيب محفوظ. هنا اكتشفت منبعاً للمتعة والجمال لا يضاهي ومنذ ذلك الوقت صرت أنظر إلى القصة القصيرة بعدها واحدة من تركي الفنون على الإطلاق. وكان ذلك مبكراً حلمي في أن أصبح، يوماً ما، قاصاً. غير أنني ظلت بحاجة إلى الإمساك بتلابيب اللغة فرحت أغامر في منطقة الشعر، لكن السرد كان نصب عيني دائماً.. ومنذ ذلك الوقت أردت أن أكتب القصص.. نشرت أول نص قصصي وأنا ابن السادسة عشرة في مجلة ناشئة، وهم جرا.. ومنذ ذلك الحين بالت الكتابة في هذا المحفل شغلي الدائم.. مع القصة القصيرة تكون في حضرة الجمال والثقافة.. تكون مع اللوحة والشعر والموسيقى أكثر من أي شيء آخر. حين نرحل تبقى القصص.. الويل لمن لا يترك قصة في العالم.

وأعترف أن شعرية القصة القصيرة هي الأكثر توافقاً وانسجاماً مع إيقاعاتي الذهنية والنفسية والروحية.

*لكنك لم تبقَ مخلصاً للقصة ولم تقف في منطقتها طويلاً؟

- في يوم ما، قبل أكثر من ثلاثة عقود، أمنت بمعجزات القصة القصيرة. قلت: لن أخلص إلا لها.. لن أكتب في أي حقل أدبي، أو معرفي آخر.. سيكون الارتباط بينها كالثوليكياً خالصاً. لكنني خنت، في النهاية، هذا الوعد. ربما لأنه لم يكن معقولاً، وأطلقته تحت تأثير عاطفة قوية تتيق بسن المراهقة، وما أردت التعبير عنه، لم يكن بمستطاع هذا الجنس السردي، وحده، الإيفاء بمتطلباته. لقد كان حلمي أن أعكس هويتي الوجودية وتجربتي في الحياة، وصورة العالم الذي خبرته وعرفته في قصة قصيرة واحدة، مبهرة، محكمة البناء، متعددة المستويات والأبعاد، مجللة ببعض الغموض الذي هو من طبيعة الأشياء، ومن قيم الجمال في الكتابة السردية. وبقيناً أن مثل هذه القصة تقع على تخوم المستحيل، رغم هذا فأنني لم أقطع معها ذلك الحبل السري قطر، بقيت سنة بعد أخرى أقرأ القصص القصيرة وأكتبها.. أقترب منها كثيراً أحياناً، وأحياناً أبتعد، رغم أن الرواية تجرأني حينا إلى عوالمها، وكذلك تفعل الكتابة في مجالات الفكر والنقد، لكن الحنين للقصة القصيرة لا يخاد يبارحني. إنها بيت الطفولة القديم. ولن أفقد احترامي لعميق لها، واهتمامي بها.. ومن غير أن أساءها، والآن أحسني وكنن في ظل قصة كتبتها شفوية من روحي، أو كما لو أنها طفلة من صلبي.

*هل أنت مع الحداثة التي يلتقطها الغموض المغتفل في القصة؟

- في الستينات من القرن المنصرم ولشرت آلاف من النصوص، تحت مسمى (القصة القصيرة) لخلها أسأت إلى هذا الفن السردي الرفيع باستغراقها في التهويمات والتشليلات البلاغية الفضفاضة، وبات الأمر لمقصود بمثابة موضة أن تكتب ما هو مقفر وغير مفهوم بدعوى إشراك القارئ في فك مغاليق النصوص، تلك التي لا مفاتيح لها حتى في أذهان كتابها. ولا أقصد، هنا، بطبيعة الحال اتهام المستغلين، فمنهم مبدعون كبار أثروا حقل هذا الفن بروى وأساليب متقدمة. لكن آخرين من أجيال متعددة، ومنهم، هو هؤلاء ينخدعوا بالشطحات والتوصيفات الحداثية الزائفة واتخذوا طرقاً في الكتابة مستلزمات موا هيهم في كتابة ما لا قيمة إبداعية له. ناهيك عن أنصاف الموهوبين، ومن يفتقرون إلى ملكة الخيال والقدرة على بناء النص السردي. وهكذا اكتسحنا طوفان من النصوص الشاحبة والثقيلة الظل والفارغة من المعنى.

وهذا لا يعني لدعوة إلى الكتابة السطحية، وأجد أن أجمل القصص هي تلك التي فيها مسحة من الغموض، ووجد هم الكتاب الكبار من بمستطاعهم خلق قصة متقنة فنياً ومظلمة بتلك المسحة لسحرية المغرية. فالغموض مزية في القصة كسحب لصاحلها، ولكن حين يتحول إلى حجاب غليظ سيفدو عيباً يخفي فقر الموهبة وشح الخيال. ثمة فرق تقني بين النص الغامض الذي يواري المعنى ويحيل فعل القراءة إلى تجربة لقرية جمالية تحتمن قدرة القارئ على الفهم والتأويل والمشاركة في لعبة التأليف وإملاء الفراغات المتروكة لذكائه. وبين النص المعلوء بالمعميات التي لا معنى لها، أنا مع الحداثة رؤية وتقنيات وتعاملاً فنياً، وضد المطية، وعلى الكاتب أن لا يفقر بالحداثة أو بغير ها عندما يكتب ليتجلب الاكتفال وتصلح اللغة والحدائات الشكلية، فالحداثة ليست خياراً مجرداً بل ينبغي أن تدخل في نسيج الشخصية الإبداعية. في فكرها ومنظورها الفني، وأن تكون جزءاً من الدينامية الواعية واللاواعية لهذه الشخصية، ولمعطيات المواقع وتحولاته. أما إذا فهمنا الحداثة بمعنى قطع الصلة مع الواقع والتاريخ فإننا نكون قد حكمنا على كتابتنا بالتلعثم والتشوب. نحن ما زلنا نقرأ تشيخوف بشغف، وما زال فوكنر وهمنغواي وبورخيس يبهروننا، وما زالت تلك اللغة البسيطة والمكثفة، الخالية من الزوائد البلاغية الطنانة التي تتصف بها قصصهم تبعث فينا الدهشة وتمنحنا مسرات لا تضاهى، وما زال ذلك الأسلوب السهل الممتنع الذي يميز أعمالهم يأسرنا. وشخصياً ما يهمني في القصة، أرى أنها أولاً وقبل أن تكون مقدمة فنياً، وثانياً أن تنطوي على معنى، وثالثاً أن تتميز بلغتها وأسلوبها، وربعاً أن تمتع قارئها، وتترك فيه أثراً، وتجعله يفكر بها وبالعالم، بعد الانتهاء من القراءة.

*كتابة الرواية الأولى لا تكون حلماً يراوغ كل كاتب هل سحرتك مغرفة "الرواية" وكيف كانت تجربتك في تحقيق هذا الحلم؟

- حينما قررت في يوم ما وكن ذلك حلماً أن أكتب الرواية، تلك اللحظة حين انتهيت في شتاء ١٩٧٣ من قراءة رواية (ميرامار) لنجيب محفوظ منذ ذلك الحين سحرتني هذه المغرفة "الرواية" وقلت في سري أريد أن أكون روائياً وحلم حياتي الكبير أن أكتب رواية غير أنني لم أفصح بذلك ولزمن طويل، ولمعطيات الواقع قصمهم تبعث فينا الدهشة وتمنحنا مسرات لا تضاهى، وما زال ذلك الأسلوب السهل الممتنع الذي يميز أعمالهم يأسرنا. وشخصياً ما يهمني في القصة، أرى أنها أولاً يجب أن تكون مقدمة فنياً، وثانياً أن تنطوي على معنى، وثالثاً أن تتميز بلغتها وأسلوبها، وربعاً أن تمتع قارئها، وتترك فيه أثراً، وتجعله يفكر بها وبالعالم، بعد الانتهاء من القراءة.

*كتابة الرواية الأولى لا تكون حلماً يراوغ كل كاتب هل سحرتك مغرفة "الرواية" وكيف كانت تجربتك في تحقيق هذا الحلم؟

- حينما قررت في يوم ما وكن ذلك حلماً أن أكتب الرواية، تلك اللحظة حين انتهيت في شتاء ١٩٧٣ من قراءة رواية (ميرامار) لنجيب محفوظ منذ ذلك الحين سحرتني هذه المغرفة "الرواية" وقلت في سري أريد أن أكون روائياً وحلم حياتي الكبير أن أكتب رواية غير أنني لم أفصح بذلك ولزمن طويل، ولمعطيات الواقع كانت تبدو مستحيلة، وكانت لي محاولات كثيرة في الكتابة الروائية والكتابة السردية عموماً قبل إقدامي على كتابة القصة القصيرة، كتبت القصص وخضت تجربة كتابة روايات لم أتته من معظمها، بسبب المعايير العالية التي قيمت نفسي بها لربما كانت نتيجة لقراءتي رواية (الصخب والعنف) لوليام فوكنر التي كانت لها التأثير الكبير في معاييري الروائية، إذ تولدت لدي قناعة بأن كتب رواية بمعايير عالية أو أن لا اكتب. وكانت قد ذهلني فوضى من الأشياء والأفكار والعوالم بحاجة إلى أن تنظم لتكون رواية، وفي التسعينات من القرن المنصرم حاولت كتابة عمل استهمت فيه أجواء البلدة التي عشت فيها طفولتي وشطراً من شبابي ومازالت هذه الرواية مخطوطة لم أقتنع بها كثيراً كنت أدرك أن الطريق إلى الرواية عسير ويحتاج إلى خبرات وتجارب ومغامرات طويلة ومرهقة أيضاً وبقيت في انتظار فرص أضنع تمتاز بسعة مساحة حلم روائي مقنع ومتماسك، لكن بعدما عاصرت إلى قدرتي في خوض رحلة الرواية كانت التجربة الحقيقية والتي اكتفت أيضاً بأن بها من الثغرات ما قبل النهاية وقد ملأتها بفصلين قصيرين إضافيين هي رواية (عشق الثواكي) هذه الرواية كانت أول عمل سردي كبير فكرت به وعشته معه سنوات طويلة قبل الشروع بتدوين الأحداث على الورق، هي أول رواية انتظمت بتفاصيلها وحي.. وشخصياتها هي الأقدم التي عاشت معي. صحيح أنها اتخذت فيما بعد، في أثناء كتابتها، مسارات مضادة أكثر تعقيداً، لكن البذرة كانت هي الأولى، ولها أعدها، على الرغم من أنني أصدرت قبلها كتاباً، كتابي الأول كانت هذه الرواية تتبلور في المنطقة الفاصلة والرابطة بين الذاكرة والوعي والخيال والحلم والكشف، لقد كتبتها في مدة قصيرة لكن كانت لدي فكرة وتصور عن رواية وصفحاتها ومخطط أولي عن الشخصيات غير أني فوجئت بعد صدور ها بالردود الفعل المعتازة عليها منذ أول أيام صدورها، وفزت في جائزة الإبداع عام ٢٠٠٠، وقام الراحل الدكتور عبد الإله أحمد والناقد الكبير الدكتور شجاع العاني بتدريسها في طلبة الدراسات العليا والأولية ٢٠٠١ و٢٠٠٢ في كليتي الآداب والتربية للبنات في جامعة بغداد خلال السنوات ٢٠٠١ و٢٠٠٢ كما أعانت الناقدة الدكتورة بشرى صالح تدريسها عام ٢٠١٣ إلى طلبة الدكتوراه في كلية آداب الجامعة المستنصرية بالإضافة إلى أكثر من ستين مقالة ودراسة ومازالت تتناول في الكثير من الأطاريح والبحوث الأكاديمية. "الرواية تساوي الحياة ومن لم يترك رواية قبل أن يموت كأنه لم يعش، ومن يترك رواية كثراً أو تحفي، فأنه لا يموت أبداً". ولابد لي من الإشارة هنا أن في الفترة نفسها كتبت رواية (ترنيمة امرأة شفق البحر).

www.palms-news.com